بماذا تتفوق السلالات

أبالدم تفوقها ام بالبيئة

على ذكر القول بتفوُّق السلالة النوردية

قلما يختلف اثنان في ان السلالة النوردية — السلالة التي تنطوي تحتها شعوب اوربا الشمالية — سلالة عظيمة ولها مكانة خطيرة في تاريخ الحضارة ولكن اذا ادَّعى احد بأن السلالة النوردية هي اعظم السلالات البشرية على الاطلاق ، وان جميع الحضارات الراقية من بنائها ، هبَّ غير واحد من العلماء لتحدّي هذا القول وردّه

مثل هذه الاقوال المتطرفة ، وخاصة اذا ارسلت باسم العلم ، دليل على ان شؤون الحياة العاطفية ، تميل بالعقل عن ميزانه العادل . فاذا كنا نورديين وقيل لنا القول المتقدم عن تفوق السلالة النوردية ، آمنَّا بصحته ، لانهُ يرضي في نفوسنا ، عزَّتها وكرامتها ، فاذا نحن اقتنعنا بتفوق سلالتنا الخاصة ، او عقيدتنا الخاصة ، او بلادنا الخاصة ، صار من السهل علينا ان نستنبط الادلة ، التي تؤيد هذا الاقتناع . حتى العلماء ، يتعرضون لمثل هذا المزلق الخطير . فمنهم من يرى رأياً علميًّا ، ويقتنع بهِ ، فيروح يبحث عن الادلة التي تؤيدهُ ، ولو كان يحتاج الى كثير من العنت في سبيل ذلك

وليس في الدعوى القائمة على تفوق السلالة النوردية شيء جديد ، بل هي ناحية جديدة من مذهب سرى في خلال القرن التاسع عشر مؤداه ان بعض طوائف من الناس لها حق منزَّل في ان تسود الطوائف الاخرى . ومن قبل ذلك احسَّ المؤلف الانكليزي دانيال ديفو مؤلف رواية روبنصن كروزن بانهُ مطالب من قبل نفسه ، بل ومن قبل الحق والعدل ، بأن يهبَّ الى السخرية من مثل هذا الرأي الذي يرمي الى تبوئه سلالة معينة المكانة العليا في تاريخ الانسانية كأن هذه المكانة خاصة بها من طريق الوضع الالهي . ولكن العواطف الانسانية قوية لتأصلها في الطبيعة البشرية ، فتطغى على صوت العقل ونوازع المنطق ، فتبدو نظرية « التفوق العنصري » او « تفوُّق سلالة خاصة » مرة بعد اخرى في خلال عصور التاريخ مع ان العقل والعلم لا يؤيدان الاركان الواهية التي تقوم عليها

ونحن الآن نشهد انبثاق هذه الفكرة او هذه النزعة من جديد بعد ما كنا قد ظننا انها قُضي عليها في اواخر القرن التاسع عشر

ونظرية « التفوق النوردي » هي فرع من نظرية التفوق الآري (اي تفوق الشعوب الآرية) التي كان زعيمها ذلك الارستقراطي الفرنسي كونت جوزيف أرثر دو جوبينو الذي توفي سنة ١٨٨٢ . فقد جوبينو هذا ، ذهب الى ان الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلقت كل ما له قيمة في الحضارة ، وحافظت عليه . وفكرة وجود سلالة آرية ، نشأت من تشابه اللغات الهندية الاوربية ، مما حدا الى القول ، بانها جميعها ترتد الى اصل واحد ، هو اللغة الآرية . والقول بتفرع اللغات الهندية الاوربية من اللغة الآرية ، يقول له سند علمي صحيح . اما ما ذهب اليه جوبينو من ان وجود لغة آرية اصلية — تفرعت منها اللغات الهندية الاوربية — يقتضي كذلك وجود سلالة آرية فقد كان وهماً من الاوهام

فلما خلقت هذه السلالة الموهومة على الطريق المتقدم ، أُسندت اليها جميع الفضائل ، وقيل انها منبع جميع الحضارات العالية ، من قديم الزمان الى حديثه . وقيل ان النورديين ، هم سلالة الآريين الذين توطنوا شمال اوربا في القِدَم ، ومنهم الشعوب التوتونية والانجلوسكسونية . ومع ذلك لم يستطع احد من العلماء ان يأتي بسند علمي واحد ، على ان السلالة الآرية كانت موجودة حقيقة ، إذ ليس ثمة علاقة حتمية ، بين اللغة والسلالة . « فالآرية » لغة ، واستعمالها للدلالة على سلالة معينة — كما يستعملها الالمان اليوم — ليس له مسوّغ علمي واحد

اما الشعوب النوردية فلا يعلم اصلهم على وجه التحقيق ، بل ليس من المؤكد انهم ينتمون الى سلالة صريحة النسب

ومهما يكن من اصل الشعوب النوردية ، فلا ريب في انهم كانوا شعوباً جمة النشاط . ثم لا ريب كذلك في ان دماءهم التي اختلطت في فترات مختلفة من التاريخ بدماء بعض الشعوب في اوربا الجنوبية ، كان لها اثر كبير في ارتقاء جنوب اوربا . ولكن هذا القول يمكن أن يطلق على شعوب مختلفة . فان اختلاط شعبين ، من سلالتين مختلفتين ، اذا كان الشعبان لشيطين متفوقين في استعدادها الحيوي والذهني ، لا بدّ ان ينتج عن شعب جديد متفوق في الغالب على الشعبين اللذين نشأ منهما

وليس في امكان العلماء ، والعلم في حالته الراهنة ، ان يقولوا ، بان سلالة بعينها من السلالات ، — او طائفة من سلالات — متفوقة بطبيعة تركيبها ونشأتها على السلالات الاخرى . بل انهم لا يعلمون هل بين السلالات هذه الفروق التي تجعل السلالة الواحدة متفوقة على الاخرى ، لانهم لم يستنبطوا حتى الآن مقاييس لقياسها . نعم لقد ابتدعت مقاييس الذكاء ، ولكن هذه المقاييس ، لا تقيس الا أثر البيئة والثقافة في الذكاء ، وقلما تستطيع ان تقيس الذكاء الاصلي ، الذي لم تؤثر فيه عوامل البيئة والثقافة

ومع ذلك تستمر خرافة تفوق السلالة النوردية فيقول اصحابها ان مجد اليونان عائد الى الشعوب النوردية التي غزت بلاد اليونان ، وان روما استطاعت ان تحافظ على عظمتها طوال ما احتفظت بدمها الآري نقيًّا غير مدخول ، وان قيام الحضارة الاسبانية يعود الى دماء القوط الذين غزوها ، وان انحطاطها بدأ لما اختلط هذا الدم بدماء الشعوب الاخرى ، وان عصر الاحياء في القرون المتوسطة وما بعدها كان ظاهرة نوردية بحتة

***

فلننظر الآن في المبادىء التي تقوم عليها هذه الدعوى . اي صحة في قول القائل بان اليونان والرومان والاسبان كانوا نورديين صراح النسب لما كانوا في اوج عظمتهم ؟ من الصعب ان تعين العناصر المختلفة التي تدخل في بناء امة من الامم في فترة ما من فترات تاريخها ولكننا نستطيع ان نتيقن من شيء واحد ، وهو ان الحروب والغزوات والفتوحات المختلفة قبل عهد التاريخ المدوَّن ، وفي فجر التاريخ ، كانت من بواعث اختلاط الشعوب بعضها ببعض وان دماء سكان اوربا في عهد اليونان ثم في عهد الرومان لم تكن صريحة من ناحية السلالة على الاطلاق . والقول بان الشعوب الرومانية واليونانية كانت صريحة السلالة لا تقوم الاَّ على الرغبة في تصديق هذا القول . وليس لها اي سند من المباحث الانثربولوجية . فالعلامة دكسون يقول ان الاسبرطيين — وهم في نظر دعاة النوردية شعب نوردي حر — من الشعوب الالبينية . وكذلك الاوترسكانيون كانوا يحسبون نورديين ولكن هرتز يقول في كتابه « السلالة والحضارة » ما يأتي : « وثمة حقيقة واحدة ثبت ان لا ريب فيها وهي ان هؤلاء القوم لم يكونوا من النورديين ولا من الهنديين الجرمانيين Indo—Germans »

ومجرد التناقض بين دعاة « النوردية » يكفي للقضاء على مكانتها من الوجهة العلمية . فبعضهم يحسب ان النهضة او الاحياء في ايطاليا ، نتيجة لاختلاط الدماء التوتونية بدماء الايطاليين في عصر انحلالهم . أما دي جوبينو ، وهو منشىء هذه الفكرة في القرن التاسع عشر ، فيؤكد ان النهضة (الرينيسانس) من آثار قوى غير توتونية . وليس هذا بالمثل الوحيد على تناقضهم

***

قد يكون من الحق ان تنكر أثر السلالة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة ولكن من الصعب ان نفرق بين أثر السلالة وأثر العوامل الاخرى المتعددة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة . على ان الذين يقولون بتفوق بعض السلالات على غيرها ، يتجاهلون هذه العوامل الاخرى ، كل التجاهل . فمن يقول بأن حضارة اسبانيا ترتد الى الدم النوردي ، وان انحلالها يرتد الى ضعف هذا الدم باختلاطه بدماء الشعوب الاخرى ، يغضي او يتغاضى ، عن أثر العوامل الاخرى في تقدم الحضارة الاسبانية كالعوامل الجغرافية والاقتصادية على اختلافها . واذ جارينا اولئك على ما يقولون — وهو ان النورديين هم سبب حضارة اسبانيا — فكيف نستطيع ان نعلل ان حضارة المغاربة في اسبانيا ،

كانت مدى عهد ضريل ، ارق الحضارات الاوربية ؟ او هل نستطيع ان نقول ان المغاربة من اصل نوردي ؟ !

قد يكون من السهل ان نفند مزاعم « النورديين » . ولكن ليس من السهل ان نعلل ، تعليلاً وافياً ، قيام الحضارات وانحطاطها . فالمسألة معقدة كل التعقيد . وقد لا يمكن حلها على الاطلاق . واغا نستطيع ان نشير الى امر واحد ، يحملنا على الحذر في اصدار مثل هذه الاحكام . فشمال اوربا مضى عليه قرون عديدة ، وهو مهاد شعوب نوردية ، صريحة في نورديتها الى حد بعيد ، ولكن شمال اوربا هذا ظل غير متمدن ، بمعنى التمدن الحديث الى عهد قريب في التاريخ ، بل انك لا تستطيع ان تدعي ان حضارة ابتدعت في شمال اوربا . وان النورديين لم ينشئوا قط حضارة خاصة بهم ممتزة لهم ، في موطنهم هذا . فهل كانوا عاجزين عن ذلك ؟

اننا نعلم ان الحضارة بدأت اولاً في اقاليم جنوبية ، تقطنها سلالات غير السلالة النوردية — في الهند والعراق ومصر وكريت — هذه البلدان كانت مواقع الحضارات الاولى . ثم انتقلت الحضارة رويداً رويداً من شرق بحر الروم الى اواسطه الى غربه ، ثم الى البلدان الشمالية . وكذلك لم يكن للشعوب النوردية اي شأن في ترقية الحضارة او ابتداع اصولها وأركانها ، قبل ان انتهت اليهم حضارات البلدان التي ذكرنا ، بعد مطافها الطويل من شرق بحر الروم الى غربه خلال العصور

واذا كانت السلالة هي العامل الوحيد ، او العامل الرئيسي في قيام الحضارة ، فلماذا ظل اولئك النورديون الشقر في شمال اوربا ، في حال الهمجية ، بينما كانت الشعوب الاخرى غير النوردية تخترع حروف الهجاء ، وتبني الامبراطوريات ، وتستكشف سطح الكرة ، وترابط بين اجزائها بروابط التجارة ؟ ثم كيف نعلل تقدمهم — اي النورديين — زعامة الحضارة بعد همجية طويلة ، لم يتغير في خلالها تركيبهم العنصري ، تغييراً كبيراً ؟

***

كل هذه الامثلة تبين ما للعوامل الجغرافية والتاريخية من أثر في توجيه مصير الامم . فالجزر البريطانية بموقعها الجغرافي كانت بعيدة عن تيارات التجارة والثقافة ، اذ كانت هذه التيارات محصورة في بحر الروم . فذلك دون بلوغها مكانة عالية في شؤون العالم — قبل القرن الخامس عشر . فلما كشف كولمبوس اميركا وبدأ « العهد الاتلنتيكي » في تاريخ العالم اصبحت بريطانيا فجأة ، وكأنها على خشبة المسرح العالمي

فموقعها في الطرف الشمال الشرقي من المحيط الاتلنتيكي ، مواجهةً للعالم الجديد ، خصها بامتيازات مكنت اهلها من تقلد الزعامة العالمية . وعلى الضد من ذلك كانت ايطاليا ، في مركز العالم لما كانت الحضارة محصورة في بحر الروم ، فلما انتقلت الى المحيط الاتلنتيكي ، فقدت مكانتها ، ذلك أنهُ لما

كشفت الطريق البحرية الى الهند ، حول جنوب افريقيا ، فقد بحر الروم مكانته كسبيل للتجارة العالمية ، وانحطت المدن الايطالية ونقصت ثروتها

فاذا نحن تدبرنا كل هذا ، لم نستطع بحال من الاحوال ان نسند انحطاط ايطاليا ، الى عوامل السلالة والدم دون غيرها

***

ثم توالت المكتشفات والمخترعات ، فأضيف الى العامل الجغرافي في قيام الحضارات ، وارتقاء الامم ، عامل جديد . فالآلة البخارية والعصر الصناعي الذي تلاها ، احدثا انقلاباً سياسيًّا وتحولاً اقتصاديًّا . ففي خلال القرنين الماضيين كان تفوُّق الامم ، يكتسب في الغالب بمقدار ما تملكه من الطاقة المحركة (عدد الاحصنة البخارية) والقوة البخارية المحركة تعني حديداً وفحماً . فمن الحمق ان نتجاهل الحديد والفحم في درس تفوق السلالة النوردية ، وان نتكلم عن الدم فقط . وقد يكون من الصعب ، ان نعين مدى اثر الفحم والحديد ، في تاريخ بريطانيا والولايات المتحدة ، ازاء العوامل الاخرى ، ولكن الراجح انهُ لولا وجود مناجم الفحم الغنية في بريطانيا والولايات المتحدة ، لكان تاريخ القرنين الاخيرين غير ما كان

***

فتاريخ كل حضارة ، كحياة كل انسان ، تفاعل دائم بين الوراثة والبيئة . فالجغرافي يقدم عوامل البيئة ، وقد اشرنا الى بعضها . وليس الغرض من هذا المقال ان نقابل بينها ، وبين العوامل الاخرى ، وانما الغرض ان نثبت ان عوامل البيئة تعين حدوداً ، قد لا تستطيع الامة ان تتعداها . فشعوب المايا في اميركا المتوسطة انشأت حضارة عالية . ولكن القول بأنها شعوب منحطة لانها لم تعادل في حضارتها حضارة اليونان ، جهل وحمق . ذلك ان هؤلاء الناس انشأوا حضارة وهم لا يملكون حديداً ولا حيوانات لحمل الاحمال فبيئتهم لم تمكنهم من هذين العاملين المهمين

اننا لا ندري ما كان اليونان يستطيعون ان يفعلوا لولا الخيل والماشية والحديد . وهذا كلهُ ورثوه من شعوب اخرى . أما بيئة شعوب المايا فلم تتح لها هذه المزايا . ومع ذلك فبعض العلماء يقول ان شعوب المايا فاقت اليونان في بعض النواحي

وليس ثمة اية فائدة تجنى من هذه المقابلات . لانها لا تفيدنا شيئاً عن القوى الذهنية مجرَّدة عن عوامل البيئة . فنحن لا نعلم البواعث على انحطاط حضارة المايا ولكن لا يحق لنا ان نسندها تحكماً الى ضعف اصيل في السلالة . والعلماء مختلفون في ذلك . فالاستاذ هنتنغتن مثلاً يسندها الى تغيُّر الاقليم . وأدلته في هذه الناحية مقنعة . فالسلالة عامل واحد من عوامل الحضارة ، كالموقع الجغرافي والاقليم والتربة والحيوانات والنباتات والمعادن [عن السنفك اميركان بتصرف يسير]